إضاءة

من بين وسائل مجابهة الأوبئة، يذكر ابن سينا الطمأنينة ويكشف حدود الطبّ في الشفاء ما لم تسنده روافد الحكمة، ها أن البشرية اليوم، والحضارة العربية الإسلامية بشكل خاص، قد دخلت جائحة لم تأخذ لها من نصائح ابن سينا غير التوصيات الطبية فيما أضاعت بعضاً من روحه، وبعضاً من حكمته وخبرته ورؤيته للعالم

عند منتصف الطريق إلى ابن سينا

حين أخفقت البشرية في الطب وفي الحكمة

شوقي بن حسن

ضاع الكثير مما خبَر ابن سينا (980 - 1037 م)، خلال حياته. لكن من حسن الحظ أن ما بقي منه تضمّن ميراثاً معرفياً تناقلته الأجيال والشعوب فأنقذ الكثير من الأرواح من الموت المبكّر وهي تصارع الأمراض والأوبئة. وها أن جائحة كورونا التي تضرب العالم منذ أكثر من عام قد أعادت ابن سينا إلى الضوء، ولو لم ننتبه لذلك كثيراً، فقد تعطلت لغة العلم الحديث وتكنولوجيات العناية الطبية، ولم يبق بيد البشرية غير تلك الإجراءات البسيطة التي كان ينصح بها ابن سينا الناس منذ أكثر من ألف عام حين انتشر الطاعون.

كان ابن سينا مثل مفترق طريق مرّت عبره معارف القرون البعيدة إلى زمانه ومن ثَمّ إلينا. ولقد كانت حجّته في تأليف الكتب أنّه يجمع فيها النافع ويترك ما تُسقطه التجربة أو الحسّ السليم، فكان كلما نصح في أمر بهم صحّة الناس اعتمد على التجريب واستند إلى الذاكرة التاريخية في ما دوّنه علماء بلاد فارس والهند والإغريق والعرب ليضخّها في الحياة العملية. وفي ما يتعلّق بالوباء، كان يشير إلى البعد عن التجمّعات بإغلاق الأسواق والمساجد، وتعقيم الملابس بالخل، وغسل الأيدي والوجوه، فكأنه يخاطبنا اليوم بلسان اللجان العلمية والحكومات.

لكن، قبل كل ذلك كان ابن سينا ينصح بعدم الخوف من المرض، ومجابهته بنفوس راضية مُسلّمة بمشيئة الله وواثقة في عدالة أحكامه، وهو الذي طالما ردّد بأن «الهمّ نصف الداء والطمأنينة نصف الدواء»، وهو قول ليس من الطبّ وحده بل هو فرع من شجرة الحكمة التي كان يحبّ أن يقطف من ثمارها، ولنا أن نلاحظ أن كل طرف من طرفَي معادلته، الطب والحكمة، يظلّ عاجزاً عن بلوغ الشفاء دون الآخر.

ولعلّ البشرية اليوم - وهي تحت كلاكل الهيمنة الغربية - لم تتعلّم إلا نصف درس ابن سينا، فهي تتوسّل الحلول بالتقنية والمخترعات والآلات، أو بالإجراءات المشدّدة، ولا تضع الشيء الكثير في كفّة الميزان الأخرى. وذلك ما عبّر عنه كاتب الخيال العلمي إسحاق عظيموف، حين أشار إلى أن تفاوت السرعة بين إنتاج المعرفة وإنتاج الحكمة يؤدّي إلى طرق مسدودة إن لم يوصل الحضارة البشرية إلى نهايات أليمة.

هكذا نعرف أن ما ضاع ليس مخطوطات ابن سينا فحسب، بل بعضٌ من روحه، وبعض من حكمته وخبرته ورؤيته للعالم، وأن التخبّط الذي نرى فيه البشرية اليوم هو جزء من ثمن ذلك التفريط. وبشكل أوسع، تدفع المجتمعات وستدفع أثماناً باهظة جرّاء إهدارها للكثير من ميراثها المعنوي والمعرفي.

لم تكن مؤلفات ابن سينا التي ضاعت إلا مقدّمة تشير إلى سلسلة الإهدارات اللاحقة، على مدى قرون إلى يومنا هذا، فقد ذهب قسط أوّل من كتاباته مع احتراق مكتبته ضمن مكائد القصور في زمنه، ثم اختفت وأتلفت كتب ورسائل مع إهمال العلوم في البلاد الإسلامية لاحقاً، وقد تكون بعض مخطوطاته قد قُذفت لإضرام نار في موقد بيت أو ألقاها بعضهم في الشارع متخلّصاً من محتويات مكتبة ورثها.

لعلّ ما تعيشه المجتمعات العربية، والمشرقية عموماً، هذه الأيام من اختناقات وانسدادات وقد ضاعفتها يوميات الوباء، تبدو مثل لعنة؛ لعنة ابن سينا. بدأ ذلك بقراءات الفقهاء، فكفّر أو عُدّ في أحسن الأحوال ممن يُفضّل اجتناب قراءته، وتطوّرت هذه العدوانية إلى ما هو أشمل من ابن سينا؛ فضُربت كل نزعة للتأليف في العلوم العقلية، ثم تراكمت الطبقات أكثر فزهدت الأمة في العلم برمّته وانشغلت بالتفسير والتكرير إلا ما ندر، إلى أن استفاقت على مدافع الغزاة، نهاية القرن الثامن عشر.

ليست الجائحة العالمية إلا رجّة جديدة، لعلها وجدت هي الأخرى القوم نياماً أو مضطربين. هم ورثة ابن سينا لكنهم لا يعرفون عنه إلا أنه حكيم زمانه، وأشهر أطبّاء القدامى، وأن الإنسانية قاطبة تعترف بمساهماته، والغرب الحديث منها خاصة. يتخبّط هؤلاء وبينهم «كتاب الشفاء»، الذي يوحي عنوانه أنه في الطب وما هو كذلك. هو عمل في المنطق والفلسفة والإلهيات قبل كل شيء، فيما خصّص ابن سينا للطب كتاب «القانون»، فكأنه وضع «الشفاء» ضمن ما نصطلح على تسميته اليوم بالعلوم الإنسانية، ووضع «القانون» ضمن العلوم التجريبية، وهو في ذلك يقول مرّة أخرى بأنه لا غنى عن معرفة الإنسان قبل معرفة العالم، فكل المعرفة ليست سوى محاكاة للكون كمنظومة يؤثّر كل عنصر فيها على بقية العناصر حتى لو احتجبت عن الأنظار العلاقات الخفية بينها، فلا نستغرب بعد ذلك أن نرى ابن سينا وهو ينتقل في الكتابة عن العقيدة أو عن الحب، وبعد ذلك عن الطيور أو نظم الحكم.

في كتاب خصّصه لابن سينا ضمن سلسلة «فلاسفة العرب»، يشرح بوحنا قمير استراتيجيات صاحب كتاب «التنبيهات والإشارات» في التعامل مع المعرفة وتلقّيها، حيث يذكر أنه فهم مبكّراً أن المنطق هو عاصمُه من الخطأ في العلم، فانهمك يُحصّله دون أن يسدّ الباب على بقية المعارف، ومنها الدينية والطبيعية، والأخيرة تمثّل مجال انبهاكه حين بلغ أوجه في تلقي العلم؛ أي في العقد الثاني من عمره، وهنا التفت للطب كعلم نافع سرعان ما فتح له أبواب القصور بعد أن شفى - وهو دون العشرين - الأمير نوح بن منصور بعد أن عجز عن علاجه أكبر أطباء عصره.

لكن قمير يشير إلى أن المكانة الاجتماعية الرفيعة التي حقّقها الطب لابن سينا لم تمنعه من العودة لتأسيس معرفي جديد، حين عاد إلى دراسة المنطق مجدداً، والفلسفة والرياضيات والإلهيات، وكأنه شخص جديد يتلقاها أوّل مرة. ومن الطرائف التي يذكرها قمير عن ابن سينا أنه كان يستعين بالحفظ حين يتعسّر عليه الفهم، كما فعل مع كتب أرسطو، ولم يكن ذلك يعني سقوطاً في النقل على حساب العقل، وإنما كانت طريقة ابتدعها للتحصيل، حيث تخلق المادة المحفوظة في ذاكرته انتباهاً إلى المفاتيح التي تمكّنه من تجاوز ما استغلق عليه.

كانت المعرفة عند ابن سينا أشبه برياضة يومية، فهو إما قارئ أو كاتب أو ممارس لها. كما كان يدرك أنه من أجل أن يكون مقتدراً على إفادة الناس - طباً أو هندسة، وحتى مشورة بسيطة في الحياة اليومية - ينبغي أن يتأهّل بمعرفة موسوعية تجمع خبرة السابقين وتستفيد من الفحص المتجدّد الذي على كل جيل أن يتعهّد به ميراث المعرفة.

دون الاجتهاد في «ملاحقة» المعرفة، كيف يمكن مجابهة أخطار العالم؟ من التخلّص من التبعية والاستغلال الاقتصاديين إلى مواجهة كوارث الطبيعة، ومنها فيروس كورونا، هذا إذا افترضنا أنه من كوارث الطبيعة ولم يكن - كما يذهب كثيرون - مؤامرة مخبرية مدبّرة.

مهما يكن من أمر، حين تمرّ عواصف الأوبئة تكون ملامح العالم قد تغيّرت، وحينها ينتظر الفناء كل من أضاع بوصلته، إما لافتقار إلى الأسلحة الطبية والمعرفية، أو لعدم القدرة على الانضباط الجماعي، أو لخمود يضرب النفس فتسقط روح المقاومة كورقة من شجرة ميتة. ويلٌ للمجتمعات التي تخلو من ورثة ابن سينا.

تمثال ابن سينا في همدان، إيران

> كان تحصيل المعرفة عند ابن سينا أشبه برياضة يومية
>
> كأنه يخاطبنا اليوم بلسان اللجان العلمية والحكومات

تصويب

مشروع غياب وولادة موجّلة

مصطفى قصقص

في مسرحية «أوديب» لسوفوكليس، يقطع لايوس، الملك المطارَد بنبوءة العرّافة، الطريق على ابنه أوديب. لا يُفسح له المجال للمرور إلى العالم والحضور فيه كما يشاء.

ينتهك لايوس ميثاقاً مكرّساً بين الأجيال يقضي بنقل الراية من الآباء إلى الأبناء، لكي يواصلوا العطش الذي يستدرج القافلة الإنسانيّة إلى السير الخلّاق من سرابٍ سعادةٍ إلى سرابٍ سعادة. تحتدم المبارَزة المأساويّة بين أبٍ خائفٍ من أفوله وابن توّاق إلى فكّ شيفرة ناره. تغرق الطريق بالدم. ويكون قتلٌ. ويكون ليل.

يرفض لايوس النزول عن المنصّة والتسليم بانتهاء دوره وكلامه.

لايوس يتنكّر لحقيقة أن الأب هو «مشروع غياب»: انسحابٌ ضروريّ من السلطة الأبويّة بكلّ تجلّياتها، لتمكين الابن من الدخول الفعليّ إلى معترك الوجود. كلّ محاولة للخروج عن هذا الناموس الطبيعيّ محكومةٌ بالمأساة.

تكمن بذور المأساة في عدم قدرة الآباء على الموت الرمزيّ والانسحاب من منافسة أبنائهم على حِصّتهم من الوجود الأصيل، بعيداً عن ثنائيّة النجاح والفشل، قريباً من الحياة المفعمة بالحياة.

(شاعر واختصاصي نفسي عيادي من فلسطين)

أبٌ روحيّ للأمل

إذا كانت الثقافة العربية قد اهدرت ميراث الحكمة الذي تركه ابن سينا، فلا يبدو ان الغرب فعل افضل من ذلك على الرغم من رعايته لميراثه الطبي وتطويره. يتحرك ابن سينا الى اليوم بين موقعي الطبيب والفيلسوف، وفي الحالين يُقارَب من منظور تقني دون التوغّل في شخصيّته وافقه الفكري. ربما نستثني من ذلك اهتمام المفكّر اللاماني ارنست بلوخ الذي كان يشتغل على تاسيس فلسفة للامل وجعل من ابن سينا ابا روحيا.

إطلالة

درسٌ في الكتابة

ممدوح عزام

لا يقدّم ماريو فارغاس يوسا للروائي الشاب الذي وجّه إليه كتابه «رسائل إلى روائي شاب» أيّة وسيلة يمكن أن تساعد في الكتابة، عدا واحدة يمكن أن تعدّ أهم الوسائل المساعدة على الإطلاق، كما يمكن أن تعدّ إحدى العقبات الكبرى إذا لم يؤمن بها ويصدّق أنها وسيلته الأهم في الكتابة: الحرّية. يمرّر الروائي هذه الكلمة كما لو كان أحدّ السحَرة، من خلال الكلام الظاهري عن الخيال والمكان والزمان والواقع والشخصيات.

هل هذا إحراجٌ تعليميّ؟ لا يوجّه يوسا رسائله إلى روائيٍّ ما يمكن تسميتُه. ليس معروفاً مَن هو الشاب الذي يخاطبه المعلّم، مثلما كان ذلك الشاعر الشاب الذي خاطبه ريلكه ذات يوم في «رسائل إلى شاعر شاب». بل إنّه يوجّهها إلى الكتابة، أو إلى درس الكتابة، الذي يجعل من الحرّيّة مفتاحاً يرى من خلاله العالم، ويعيد تشكيله. وهذه هي الرسالة الثانية. بالحرية التي منحها لنفسه.

لم يكن يوسا جادّاً في أن يوجّه تعليماً إلى أي روائي، وليس في برنامجه الإبداعي أيُّ وهم في أن يكون بوسعه هو، أو غيره أيضاً. بحسب ما أظن، أنّه يفكّر، أن يقدّم مدرسةً للتدرُّب على الكتابة الروائية، منقولةً أو مُستمَدّةً من أيّة تجربة أو مرجع. ويمكن لأيّ كتاب نقدي، من تلك الكتب النقدية التي ناقشت فنّ الرواية، أن يكون ندّاً لكتاب يوسا. ولكنّ فضيلة هذا الكتاب هي أنّ كاتبه روائيٌّ فنّان، أضاف الكثير إلى فنّ الرواية العالمية.

لهذا، يمكن اعتباره مجرّد حيلة، لا أكثر، لكتابة بعض الآراء عن هذا الفنّ، أو لمنحنا المعطيات الضوئية المساعِدة، ومنها مثلاً: «الكتابة هي طريقة في الحياة»، كما كان يقول فلوبير (على ذمّة يوسا أيضاً). فاختيار هذه الطريقة التي تخصّك وحدك يحمل الدلالة على المدى أو المسافة التي تسمح فيها لنفسك بأن تكون حرّاً من الطُّرق الأخرى التي يرسمها لك غيرُك، سواء كانت طريقة في السياسة، أو كانت طريقة في الفن والأدب.

أو، لا يمكن لِمَن يرضى بالعالم الواقعي كما هو أن يكون روائياً، فاختلاق القصص طريقةٌ لممارسة الحرّيّة. وكلّ مَن يسعى لنسج حيوات من الخيال إنّما يُعلن عن رفضه وانتقاده للعالم الواقعي، أي أنّه في هذا المسار يثير القلق من هذا العالم داعياً. بالسرّ الروائي المخبّأ في النصوص وبحرّيّة الشخصيات. إلى التمرّد عليه. بل إن الروائي يعتبر أن طريقة كلّ كاتب في استغلال الزمان أو المكان أو الخيال مثلاً، إنّما هي وسيلته ليحرّر إبداعه من عوائق المحيط في العالم الواقعي، كي يزوّده بذلك الاستقلال الذي يمنحه تميُّزَه وتفرُّده بين غيره من كتّاب الرواية.

الكلام عن كتاب في أقلّ من مئة وخمسين صفحةٍ من التركيز على الحرّيّة التي يجب أن تكون الضامن الوحيد للعلاقة بين الكاتب والنصّ، يُمكن أن يُختتَم بقصيدة لمحمود درويش إلى شاعر شاب، تتحدّث عن الحرية أيضاً: «لا تصدق خلاصاتنا/ وابتدئ من كلامِك أنت/ كأنّك أوّلُ مَن يكتب الشعر/ أو آخر الشعراء».

(روائي من سورية)

الظاهر المتجلّي لجميع الموجودات

حديث في العشق الإلهي

كان ابن سينا يعتبر أنّ دراسة الطب تحتاج معرفة بأحوال الإنسان جميعها، ولعلّ أكثرها مدعاة للتأمّل الحبُّ، فخصّص له رسالة يدرس فيها مختلف وجوهه

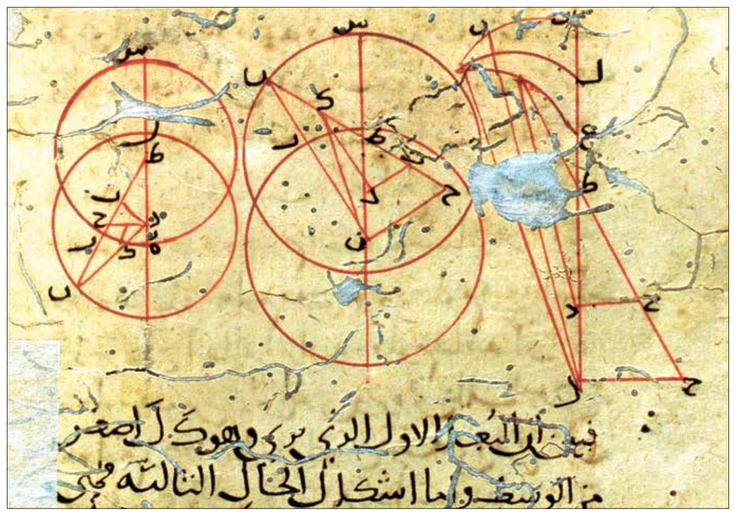

من مخطوط «مختصر المجسطي» لابن سينا (Getty)

ابن سينا

لمّا كان في كل واحد من الموجودات عشق غريزي لكماله؛ وذلك لأن كماله معنىً به تحصّل له خيريته، أوجب أن يكون ذلك الشيء معشوقاً بستفيد الخيرية، ثم لا يوجد شيء أولى بذلك من العلّة الأولى في جميع الأشياء، فهو إذن معشوق لجميع الأشياء.

وكون أكثر الأشياء غير عارف به لا ينفي وجود عشقه الغريزي فيها. كما لا يوجب ذلك بقاء العشق الغريزي في هذه الأشياء لكمالاتها، والخير الأول بذاته ظاهر متجلٍّ لجميع الموجودات، ولو كان ذاته محتجباً عن جميع الموجودات بذاته غير متجلٍّ لها لما عُرف، ولا نِيل منه، ولو كان ذلك في ذاته بتأثير الغير؛ لوجب أن يكون في ذاته المتعالية عن قبول تأثير الغير وذلك خلف، بل ذاته بذاته متجلٍّ، ولأجل قصور بعض الذوات عن قبول تجلّيها يحتجب، فبالحقيقة لا حجاب إلا في المحجوبين، والحجاب هو القصور والضعف والنقص.

وليس تجلّيه إلا حقيقة ذاته، إذ لا متجلّي بذاته في ذاته إلا هو، وإنه كما أوضحه الإلهيون فذاته كريمٌ متجلٍّ؛ ولذلك ربما سمّاه الفلاسفة صورة للعقل، فاول قابل لتجلّيه هو الملك الإلهي الموسوم بالعقل الكلّي فإنه بجوهره ينال تجلّيه كجوهر الصورة الواقعة في المرآة المُتجلّي الشخص الذي هي مثاله، وقريب من هذا المعنى ما قيل إنّ العقل فعال مثاله، فاحترز أن تقول مثله، وذلك هو الواجب الحق، فإن كل منفعل عن سبب غريب فإنما ينفعل بتوسّط مثال واقع من الفعل فيه وبالعكس، وكل منفعل إنما ينفعل في قابل الانفعال عنه بتوسّط مثال يقع منه فيه، وذلك بيّن بالاستقراء، فإن الحرارة النارية إنما تفعل في جرم من الأجرام بأن تضع فيه مثاله وهو السخونة، وكذلك سائر القوى من الكيفيات، والنفس الناطقة إنما تفعل في نفس ناطقة مثلها بأن تضع فيها مثالها، وهو الصورة المعقولة، والسيف إنما يقطع بأن يضع في المنفعل عنه مثاله وهو شكله، والمسنّ إنما يحدّد السكين بأن يضع في جوانب حده مثال ما ماسّه وهو استواء الأجزاء وملاستها.

ولقائل أن يقول: إن الشمس تسخّن وتسوّد من غير أن تكون السخونة والسواد مثالها، لكنّا نجيب عن ذلك بأن نقول: إنّا لم نقل إنّ كل أثر حصل في متأثر من مؤثر، ان ذلك الأثر موجود في المؤثر، فإنه مثالٌ من المؤثر في المتأثر، لكنا نقول: إن تأثير المؤثر القريب إلى المتأثر في المتأثر يكون بتوسّط مثال ما يقع منه فيه، وكذلك الحال في الشمس، فإنها تفعل في منفعلها القريب بوضع مثالها فيه وهو الضوء، ويحدث من حصول الضوء فيها السخونة، فيسخّن المنفعل عنها منفعلاً آخر عنه، بأن يضع فيه مثاله أيضاً.

(من فصل «في ذكر عشق النفوس الإلهية»، من كتاب «رسالة في ماهية العشق»)

فعاليات

عند السابعة من مساء الاربعاء المقبل، الخامس من ايار/ مايو، تنظّم جمعية «افريقيا الافكار» في باريس لقاءً افتراضيا مع المفكّر الكاميروني **اشيل مبيمبي** بعنوان **الصيرورة الافريقية للعالَم**. ستدور مداخلة صاحب «سياسات العداوة» حول إمكانية احتضان القارة الافريقية لتجربة بشرية جديدة تحترم الكائن الحيّ وتعدّده.

عبر منصّتها على «فيسبوك»، تنظّم «مؤسسة كوكلتو» في برلين، بين الخامس والثامن من ايار/ مايو المقبل، معرض **غياب** الذي تشارك فيه الفنانات **ربى سلامة**، و**رزان صباغ**، و**روزين بشارات**، و**مريان عازر**، و**هند البلعوطي**، و**هنا السجيني**. بالتوافق مع موضوع المعرض، تقوم كل فنانة بالا تصال من مكان إقامتها عبر طابعة عن طريق الإنترنت لتقديم اعمالها بشكل مباشر للجمهور.

ينظّم «الملتقى الثقافي العربي»، عند التاسعة من مساء غد السبت بتوقيت تونس، ندوةً افتراضية بعنوان **الامن الثقافي العربي**، يشارك فيها **فتحي فارس**، و**حسيت العوري**، و**سميرة بن مصباح** من تونس، و**لؤي خليل** من سورية. يطرح المشاركون مسائل اللغة واللهجات العامية والتراث في علاقتها بالامن الثقافي.

حتى الثاني عشر من ايار/ مايو المقبل، يستمر في «تام غاليري» بالقاهرة المعرض الجماعي **فنانو الغد**، الذي انطلق في الرابع والعشرين من نيسان/ ابريل الجاري بمشاركة العديد من الاسماء الفنية الشابة، من بينها **ناديا توفيق**، و**سلمى هشام**، و**امير عبد الغني**، و**فيروز سمير**، و**سلام يسري** (اللوحة).